حلاّق الحرب..

ضمن حالات التأقلم القسري مع مناخ الحرب والاحتياجات الإنسانية والذاتية الضرورية للناس، حاجتهم الماسة للحلاقة وخاصة بعد ان استطال زمن هذه الحرب، حيث تعدى بقائنا بحالة النزوح ما يقارب ١٧٠ يوماً.

الحلاّقين منتشرين بكل مكان، يخطر أو لا يخطر على البال، خاصة أن الحلاّق لا يحتاج سوى لكرسي بلاستيك ومقص ومشط صغير وشفرة وبشكير وفرشاة صغيرة لتنظيف الشعر المتساقط من الزبون. وهكذا يصبح الحلاق جاهزاً لاستقبال أعظم الشخصيات والقيادات، والفقراء والمتسولين والمشردين، فجميعهم يجلس على نفس الكرسي ليتخلص من شعره، خاصة في ظل صعوبة الاستحمام الذي أصبح ترفا من كماليات حياة النزوح. لقد أضحى الشعر الكثيف للرأس والذقن سمةً غالبة لشكل الرجال، و تربة خصبة لتجمع الغبار والحشرات وما الى ذلك.

نتيجة التكدس البشري الهائل بالجنوب ومناطق النزوح وقلة عدد صالونات الحلاقة، حيث ترك الحلاقون صالوناتهم الفخمة خلفهم وتوجهوا الى ما بعد وادي غزة، وأصبحت الجلسة المريحة للزبون، والكولونيا ونوع الصابون وجودة البشكير ونوع المقص وشكل الحلاق ونظافة المحل وتعقيم المواد غير ذي أهمية، ولم تعد تسترعي انتباه الزبون أصلاً.
هنا تجد الحلاقين منتشرين في الأسواق وإذا ذهبت الي شارع البحر تجدهم يتجولون على طول الشارع وأمام بوابات المدارس، حتى بإمكانك مصادفتهم داخل المستشفيات.

وهنا تبدأ حكايتي مع ما شاهدت وسمعت من حوار بين زبون وحلاق داخل مستشفى شهداء الأقصى. فقد كنت أنتظر صديق تواعدت أن التقيه داخل المستشفى، أمام مدخل الاستقبال. ومن شدة الازدحام والتزاحم أمام المدخل المكتظ نتيجة إحضار الشهداء والجرحى وبكاء ذويهم وصراخهم، ووقوف مجموعة من الرجال طوال الوقت أمام باب الاستقبال للقيام بأداء صلاة الجنازة على أرواح الشهداء قبل دفنهم؛ فقد اخذت جانباً بانتظار صديقي بجوار حلاّق شاب نحيف جداً، يحلق لرجل خمسيني أنحف منه. في البداية استغربت وجود حلاّق في هذا المكان الممتلئ بالشهداء والمصابين، وعشرات الصحافيين والمصورين، الذين ينقلون الأخبار الي كل أصقاع الدنيا. كيف خطر على بال هذا الشاب أن يتخذ من هذا المكان موقعا لممارسة مهنة الحلاقة؟!
وسرعان ما اكتشفت أن المستشفى نفسه به عدد كبير من النازحين المنتشرين في باحات المستشفى، سواء في داخل الممرات أو بالخارج، وطبعا هؤلاء جميعاً مع الموظفين والزائرين والبائعين وبحاجة الي حلاقة رؤوسهم، الأمر الذي ذهب باستغرابي واندهاشي بلا رجعة - في زمن أصبحت فيه تلك المشاعر عملة نادرة - أنه زمن الحرب يا أصدقائي الأعزاء!

نعود لما حدث بين الحلاّق والزبون. فجأة وأنا أراقب أداء هذا الشاب المبتكر للرزق ولصراعه مع قسوة شروط الحياة، إذ بالرجل الجالس للحلاقة، يلتقط بعض خصال من شعره الأبيض المتساقط ويتساءل: شعر من هذا؟!
يجيبه الحلاق شعرك يا عمي الحاج..
ينكر الرجل ما رأى ويقول هذا ليس شعري.. شعري لونه أسود قاتم، هذا الشعر لونه أبيض.
فيرد الحلاق والله يا حاج هذا شعرك.. كل شعرك أبيض، أبيض..
فيجيبه الرجل: كيف هذا ومتى حصل؟! أنا أعرف شعري جيداً، طوال حياتي لونه أسود، متى تغيّر لونه؟!
هل لديك مرآة يا بني؟!
مد الحلاّق يده الى جيب شنطة سوداء بجواره، أخرج منها مرآة صغيرة وناولها للرجل الذي يبدو انه لم ينظر لوجهه بالمرآة منذ عدة شهور.. فبمجرد أن وقعت عيناه على المرآة، ذهب في نوبة بكاء صامت.

عندها توقف الحلاّق عن مواصلة عمله، وهنا أيضاً توقف كل شيء حولي، ولم أعد أسمع صراخ المكلومين، ولا حركة سيارات الإسعاف، لدرجة أنني نسيت موعدي مع الصديق الذي أتيت من أجله. غادرت بوابة المستشفى بصمت يشبه البكاء. ابتعدت قدماي عن المكان، وبدا كل شيء أبيض اللون بلون دموع ذلك الرجل الخمسيني على كرسي الحلاقة.. مضيت في طريقي لا اعرف أين ستأخذني قدماي.

٢٠٢٤/٣/٢٦
علي ابو ياسين